لهذا شقّ المسلمون عصا الطاعة وقاتلوا الخلفاء

▫ هل إذا ضرب خليفة المسلمين على كل الرقاب التى خرجت عليه يكون متبعًا للسنة النبوية؟ ▫ ماذا ستفعل المؤسسات الدينية الرسمية مع ألغام وقنابل كتب الحديث والفقه؟ ▫ كيف يستحيل القضاء على الإرهابيين بالسلاح وحده؟

محمد السعيد مشتهرى

إن أكبر مصيبة ابتُليت بها التيارات الدينية المختلفة هى «الانتماء المذهبى» القائم على «البيعة»، و«السمع والطاعة»، و«الولاء والبراء»، و«الجهاد والخروج فى سبيل اللّه»!

إن هذه العقائد المذهبية لا علاقة لها أصلا بكتاب اللّه، ولا بتفعيل النبى لآياته، وإنما ظهرت بعد أحداث الفتن الكبرى، ودُوّنت فى أمهات كتب الفِرَق والمذاهب المختلفة، بعد قرن ونصف القرن من وفاة النبى، وأخذت مساحة كبيرة من هذه الكتب، تصل إلى آلاف الصفحات!

لذلك، فإن المجرم الحقيقى وراء كل الأعمال الإرهابية التى تحدث فى العالم باسم الإسلام وتحت راية «لا إله إلا اللّه- محمد رسول اللّه»، يعيش آمنًا، يخاطب الناس على منابر الدعوة، المحلية والفضائية، ويحمل سيف «إنكار السنة»، يضعه على رقاب كل من تسول لهم أنفسهم إنكار هذه العقائد المذهبية!

إن المسلم الذى يفجر نفسه لا يفعل ذلك من أجل الإسلام، وإلا ما فعل! ولا بناءً على فهم واعٍ لآيات الذكر الحكيم، وإلا ما فعل! وإنما يفعل ذلك من أجل شىء مقدس عنده، وهو السمع والطاعة لأمير الجماعة، الذى بايعه على ذلك!

فإذا سألنا الأمير: كيف تبيح قتل المسلمين بغير حق، واللّه تعالى يقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً»؟! أخرج لك من خزانة مصدره الثانى للتشريع الروايات والفتاوى التى تبيح له ذلك، وطبعًا حسب التكييف الشرعى للمذهب العقَدى الذى ينتمى إليه، والقائم على عشرات الأحاديث المنسوبة إلى النبى التى تأمر بالطاعة المطلقة للإمام. ومن هذه الأحاديث، ما ورد فى صحيح البخارى:

١- عن عبد اللّه بن عباس، قال: قال رسول اللّه: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا ميتة جاهلية»!

٢- عن عجرفة قال: قال سمعت رسول اللّه يقول: «إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهى جمع، فاضربوه بالسيف، كائنا من كان».

فتعالوا نفكر سويا، إذا كانت هذه الروايات قد حملت السنة النبوية التى تأمر المسلمين بطاعة الأمراء وولاة الأمور طاعة مطلقة، فلماذا لم يهتدِ بها كبار الصحابة، ومعهم أم المؤمنين عائشة، ومعاوية الذى كان يملك جيشا من أقوى الجيوش الرادعة، وتركوا خليفة المسلمين، عثمان بن عفان، يحاصره القتلة أربعين يوما، حتى قتلوه؟!

ولماذا شقت السيدة عائشة عصا الطاعة، وخرجت بجيشها تطالب خليفة المسلمين على بن أبى طالب بالقصاص من الذين قتلوا عثمان؟! فهل المطالبة بدم عثمان يمكن أن تكون مبررا شرعيا لاشتعال المعارك الدموية التى استمرت إلى يومنا هذا؟!

وهل من ماتوا من جيش السيدة عائشة ماتوا ميتة جاهلية؟! وهل إذا ضرب خليفة المسلمين علىّ كل الرقاب التى خرجت عليه، يكون متبعًا لـ«السُّنة النبوية»، حسب ما ورد فى هذه الروايات؟!

إذن نحن أمام إشكالات كبيرة وخطيرة، ومنها:

أولا: كيف تشارك أم المؤمنين عائشة، وكبار الصحابة فى معارك دموية استمرت أياما، وسُفكت فيها الدماء عمدًا مع سبق الإصرار والترصد، ومنهم **مبشرون بالجنة**، واللّه تعالى يقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً»؟!

ثانيا: كيف قبل المحدثون مرويات الذين اشتركوا فى أحداث الفتن الكبرى من الجانبين؟ ألا يُدخلهم ذلك دائرة الجرح فلا تُقبل شهاداتهم ولا أحاديثهم، حسب ميزان الجرح والتعديل؟!

ثالثا: ماذا ستفعل المؤسسات الدينية الرسمية مع أمهات كتب الحديث والفقه التى تحمل هذه الألغام والقنابل الموقوتة: الإمارة، والخلافة، والبيعة، والسمع والطاعة، والجهاد، والخروج فى سبيل اللّه. وهى القاتل الرسمى وراء جميع الأعمال الإرهابية التى تحدث فى العالم تحت راية «لا إله إلا اللّه- محمد رسول اللّه»؟!

والغريب، اللافت للنظر، أنه للخروج من هذه الإشكالات الخطيرة التى تهدد علم الحديث بالسقوط من قواعده، ذهب أئمة السلف إلى آية فى سورة الحجرات، ظنوا أنها المخرج من إشكال سفك المؤمنين دماء بعضهم، عمدًا مع سبق الإصرار والترصد، وأن ما فعلوه لا يخرجهم من ملّة الإسلام، ولا يخلع عنهم صفة الإيمان؛ لأن اللّه تعالى يقول:

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»- «فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ»- «فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا»- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

وبناءً على ذلك، أخرج أهل السنة جميع الصحابة من دائرة الجرح، ووضعوا أصلا جديدا من أصول الدين اسمه «عدالة الصحابة»، من مسهم بسوء فقد مس أصول الدين وثوابته، يُحكم عليه بالردّة، وكذلك فعل الشيعة، وقالوا بـ«عصمة الأئمة»!

فإذا ذهبنا إلى هذه الآية، وتدبرنا سياقها، وجدناها لا تتحدث مطلقا عن معارك دموية، وإنما عن اقتتال، أى عن تنازع، عن «خناقة» قد تستمر إلى ساعات على الأكثر، ولكن ليس أياما، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى حكايةً عن موسى، عليه السلام: «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ»، أى يتعاركان بالأيدى، بدليل أن موسى كان يستخدم يديه لفض هذا الاشتباك!

صحيح، قد يتحول الاقتتال إلى قتل، ولكنه فى هذه الحالة يكون قتلا خطأً، كما حدث مع موسى: «فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ». و«الوكز» هو الضرب باليد بجمع أصابعها!

إن سياق الآية لا علاقة له بالقتل العمد، بدليل قوله تعالى: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُم»، وقوله بعدها: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»!

ولكن إذا أصرت طائفة على التوسع فى الاقتتال، وتجاوزت الحدود، «فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ»، فهنا على الدولة «الطرف الثالث فى الآية» أن تتدخل «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ- فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»!

إن قوله تعالى «فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» دليل على أن الاقتتال لم يكن فى أصله مواجهة بالأسلحة القاتلة، كما حدث فى أحداث «الفتن الكبرى»، ذلك أن المؤمنين لا يتعمدون سفك دماء بعضهم أصلا، فاللّه تعالى يقول: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا»- «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا»- «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ»- «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»!

لذلك فإن آية سورة الحجرات لا تصلح مطلقا لأن تكون هى «الشماعة» التى يعلق عليها أئمة السلف والخلف، نتائج أحداث الفتن الكبرى! لقد كانت نتائج أحداث الفتن الكبرى وراء كل الفتن والمصائب التى فرّقت المسلمين إلى مؤسسات وجماعات وأحزاب دينية، حتى أصبح فى كل شارع من شوارع البلاد مسجد حاضن للتطرف الدينى يتبع مؤسسة دينية، رسمية أو غير رسمية، الأمر الذى بات يمثل تهديدًا حقيقيا لأمن البلاد والعباد، بل ولأمن العالم!

إننا يستحيل أن نقضى على الإرهابيين بالسلاح وحده، فهم يولدون كل يوم فى جميع أنحاء العالم، فإذا استطعنا أن نقضى عليهم فى بلد، لن نستطيع أن نقضى عليهم فى العالم!

والإرهابيون يستحيل أن يقضوا على الشعوب، إذا آمنت هذه الشعوب بأن الإرهاب فكر يدخل القلوب، قبل أن يكون جسدًا يتحرك بين الناس، وأن هذا الفكر يُقدم للناس على طبق من عسل بداخله سمّ قاتل لا يظهر مفعوله إلا بعد عقود من الزمن!

والفكر الإرهابى يستحيل أن نقضى عليه دون إصدار تشريعات جريئة تحاصر منابعه وتحقق الأهداف التالية:

١- اقتلاع جذور الفكر الإرهابى من أمهات كتب التراث الدينى، التى لبست ثوب «السُّنة النبوية» لتأخذ قدسية فى قلوب أتباع التيارات الدينية المختلفة!

٢- الرقابة الناجزة على المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، وعلى المساجد الحاضنة للفكر الإرهابى، والمخترقة من الإرهابيين وأنصارهم، وعلى منابر الدعوة المحلية والفضائية!

٣- وضع المناهج التربوية التى تبين **حقيقة الإسلام**، من الألف إلى الياء، بحيث تكون مناهج رئيسية تدرس فى جميع المؤسسات التعليمية، من الحضانة إلى الجامعة!

والسؤال: هل تجرؤ المؤسسات الدينية الرسمية أن تصدر بيانًا باسم هيئة كبار العلماء يعتبر منفّذى الأحداث الإجرامية كفارًا خارجين من ملّة الإسلام؟!

الجواب: لن تجرؤ!! لأن هذا معناه حذف آلاف الصفحات التى حملت هذه العقائد المذهبية من أمهات كتب التراث الدينى، والحكم على أحاديث كثيرة بالبطلان، وقد وردت فى أصح كتب الحديث، وهذا كله عندهم من المقدس الذى يحرم المساس به! لذلك سيبقى الوضع على ما هو عليه، وسيظل الإرهاب قائما بيننا، يعيش فى سلام وأمان، تحميه المؤسسات الدينية! «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

رابعًا: ماذا ستفعل الدولة مع القنوات الفضائية التى تستضيف رموز التيارات السلفية الذين يدعمون أزمة «التخاصم والتكفير» بين المسلمين؟! فهل يُعقل أن يخرج علينا أحد أقطاب الفكر السلفى، وعند حديثه عن الصراع بين السُّنة والشيعة يقول على إحدى هذه القنوات: «إذن نحن أمام صراع سُنى شيعى لن يُحل إلا بأمرين: البلاد التى تحكمها أغلبية سُنية تعتبر الشيعة كاليهود والمسيحيين، ومواطنون لهم الحق فى كل الحقوق»!

حقيقة الإسلام

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»- «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ». والمرجع الوحيد لبيان حقيقة الإسلام هو كتاب اللّه: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا»!

المبشرون بالجنة

هم: أبو بكر- عمر- عثمان- علىّ- الزبير- سعد- أبو عبيدة- طلحة- عبد الرحمن بن عوف- سعيد بن زيد. وهذا الخبر ورد فى كتب التراث الدينى، ولكن أحاديث الفتن الكبرى تكذّبه!